

الانتماء القومي عند المتنبي



د/ عبد الله عبد الرزاق الأزرق^(*)

تقديم :

لقد شغلت النفس العربية المثلى عبقرية المتنبي طوال حياته ، فاتخذها هدفاً لجميع شعره ، يدأب في توضيح ملامحها والتغني بها . هذا وقد ظهرت قومية المتنبي في نواح متعددة من شعره ، فنسمعه يحفز العرب على جمع كلمتهم ، مبيناً بقوة وجلاء ، ضرورة استيلاء العرب على دقة الحكم وإعادة الملك العربي إلى صفاته وصحته :

وإنما للناس بالملوك وما تفلحُ عربٌ ملوكها عجمُ
لا أدبَ عندهم ولا حسبَ ولا عهدٌ لهم ولا ذمم
لكل أرضٍ وطنتها أمم تُرعى بعيد كأنها غنم

فكان أجمل شعر قاله في تمجيد العرب ما نظمته عند سيف الدولة ، وكانت أعنف دعواته إلى القومية العربية ، تلك التي نادى بها بعد إخفاقه لدى كافور :

سادات كل أناسٍ من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبدُ القزمُ

^(*) قسم اللغة العربية - كلية اللغات - جامعة طرابلس - ليبيا .

ومن منطلق عروبيته وقوميته العربية ، فقد كان يتطلع إلى خلفاء
عرب أقوياء ، يمتازون بالكرامة والعنفوان والشموخ ، ولذلك لخص الصفات
التي يتمناها في الخليفة بقوله :

متى ما يُشرّ نحو السماء بوجهه — يخرّ له الشعرى وينخسف البدر
ترى القمر الأرضي والملك الذي — له الملك بعد الله والمجد والذكر
كثير سهاد العين من غير علة — يؤرقه فيما يشرفه الفكر

صاحب كبرياء وشجاع طموح محب للمغامرات. في شعره اعتزاز
بالعروبة، وتشاؤم وافتخار بنفسه، أفضل شعره في الحكمة وفلسفة الحياة
ووصف المعارك، إذ جاء بصياغة قوية محكمة. إنه شاعر مبدع عملاق
غزير الإنتاج يعد بحق مفخرة للأدب العربي، فهو صاحب الأمثال السائرة
والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وجد الطريق أمامه أثناء تنقله مهيناً
لموهبته الشعرية الفائقة لدى الأمراء والحكام.. مع ملاحظة شعره لا يقوم
على التكلف والصنعة، لتفجر أحاسيسه وامتلاكه ناصية اللغة والبيان).

من هو المتنبي :

هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي
الكوفي، المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، وقيل هو "أحمد بن الحسين بن
مرة بن عبد الجبار" ^١

ولد في الكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تدعى كندة، نشأ في
الكوفة، وكان والد المتنبي يعرف بـ "عبدان السقاء" يسقي الماء لأهل

^١ (وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان) (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ،تح. احسان عباس مج : ١ دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ص ١٢

الكوفة ولا يخفي بأن " المتنبي رجل عربي خالص النسب ينتهي من قبل أبيه إلى جعفي ومن قبل أمه إلى همدان" ^١

فقد كانت "جدته لأمه همدانية النسب ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات" ^٢

وتشير المصادر على أنه " قد عُرف بالمتنبي، وطغى اسم الشهرة هذا عليه حتى حُجِبَ اسمه الحقيقي ، ويروي أنه تنبأ وهو في فورة الشباب وصحوة العمر ، فقبض عليه أمير حمص وحبسه" ^٣

وحكي أبو الفتح بن جني شارح ديوان المتنبي، قال :سمعت أبا الطيب يقول إنما سميت بالمتنبي لقولي:-

أنا ترُبَ الندى و رَبِّ القوافي صَمَامُ العِذَا وَغَيْظُ الحشود
أنا في أمة تداركها اللأه —————
ما مقامِي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

تمت غموض في نسبه ، فلم يكذ أحد يؤكد أو يعرف نسبه الحقيقي ، وفي حياته وأحداثها اضطراب أيضا ، كأنما هو سر من الأسرار لا يعرفها غيره .

نسبه :

ولم يذكر المتنبي في شعره نسبه ، فقد كان يكتف ذلك ، " فسئل عن ذلك ، فقال : إني أنزل دائما على قبائل العرب وأحب ألا يعرفوني ، خيفة أن

(١) مع المتنبي ، طه حسين دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٠

(٢) شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٠ ، ١٤٠٠ م ، ص ٢٢

(٣) شوقي والمتنبي (نظرات في الجندية والحرب) ، السيد فرج ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٥٨ ، ص ٦٢

يكون لهم في قومي سيرة" ^١ وأنه لم يشر إلى والده أو جده ، إنما ذكر جدته لأمه وكان يدعوها والدته حيث

قال :-

أْمُنْسِي السَّكُونَ وَحَضَرَ مَوْتًا وَوَالِدَتِي وَكِندَةً وَالسَّبِيْعَا

فقد كان المتنبي يتجاهل في شعره نسبه وقبيلته ، فلم يكن يعنى بأن يُعرف عنه إلا المتنبي حيث قال ضمن أبيات إحدى قصائده في صباه :-

لا بقومي شُرُفْتُ بَلْ شُرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وماتت أم المتنبي في حادثته ، فلم يتأثر لموتها ولا سخر موهبته لراثها بالرغم من أنه رثى آخرين بعيدين عنه رثاء مجاملة ، وكذلك كان نصيب والده مثل أمه وقد استبدل المتنبي بذلك كله ذكره جدته التي سماها أمه" ^٢ .

حيث قال :-

بيدي أيها الأمير ألا ريبُ لا لشيءٍ إلا لأنني غريبُ
ولأم لها إذا ذكرتني دمٌ قلبٍ في دمعٍ عينٍ تدوبُ

قد ماتت جدته - كما تذكر لنا بعض المصادر - فرحاً بكتاب جاءها منه بعد غيبه طويلة ، حيث كتبت إلى حفيدها شوقها وطول غيبته عنها فكتب إليها هو كتاباً يسألها موافاته في بغداد ، فلما أخذت كتابه ، قبلته وحمته

^١ (الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، تح: مصطفى السقا و محمد باثنا ، مط: دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٠)

^٢ (أثر بعد عين ، محمد أحمد وريث ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس ليبيا ، ط: ١ ، ١٩٨٣ ، ص ٤٧)

بوقتها وغلبها الفرح فقتلها فتحسر المتنبي لفقدائها وقد ماتت دون أن تحظى برؤيته كما تمننت .

فيقول عنها في قصيدته البليغة المؤثرة في رثاها بها :-

فو أسفا أن لا أكْبَّ مُقْبَلًا لرأسِكِ والصدرِ الذي ملينا حزمًا
وأنا لا ألقى رُوحك الطيبَ الذي كأنَّ ذكِّيَ المِسْكِ كان له جسمًا
ولو لم تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ والد لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخَمَ كَوْنُكَ لي أُمًّا

إذن تلك هي جدته التي تفردت من بين أسرته جميعا برثائه واحترامه الضخم لها في شعره ، ولقد اتفقت روايات المؤرخين أن أبا المتنبي كان سقاء وفي ذلك ما فيه من حاجة الفقر التي عدها المتنبي نقیصة كبرى نغصت كبريائه ^١

وتلك كلها نقاط ضعف خفيفة السبب أو الأسباب في حياة هذا الشاعر الصلف طباعا ، الحاد سلوكا ، فشككت في مجملها مغمزا استغله بعض خصومه ليصفوه بالوضاعة وانحطاط المنشأ والنسب ، مما حد بـ (ابن لنكك البصري)^٢ أن يهجوه عندما سمع لوجوده في بغداد بعد عودته من مصر ، بقوله :-

لَكِنْ بَغْدَادُ جَادَ الْغَيْثُ سَاكِنُهَا نِعَالُهُ فِي قَفَا السَّعَاءِ تَزْدَحِمُ
فقد مات والد المتنبي ولم يحض من ابنه رثائه ولو بكلمه واحدة .

رحلاته:

"خرج المتنبي من الكوفة بعد غزو القرامطة لها سنة ٣١٦ هـ — منتقلا إلى بغداد لأنه لم يبق فيها كثيرا ، لأنه رأى أن أكثر الناس يَتملقون

(١) المصدر نفسه ، ص : ٤٥
(٢) الحسن ابن لنكك البصري من الشعراء الذين طعنوا على المتنبي وهجوه واستقبلوه استقبالا سيئا في كل مكان حل به

للعظماء والأثرياء ، مما أذكى في نفسه نار الثورة فأتجه إلى الشام حيث أقام فيها وقتاً طويلاً^١

قدم المتنبي إلى الشام في صباه ، وجال في أقطاره ، وكان عمره حوالي سبعة عشر عاماً ، وما زال إلى أن ادّعى النبوة في بادية السماوة ، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيره ، فخرج إليه لؤلؤ - أمير حمص الإخشيدي - فأسره وتفرق أصحابه ، وحبسه طويلاً ، ثم استتابه وأطلقه ، ثم ألحق بالأمير سيف الدولة بالحمدان - سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة - "ومازال منقطعاً له حتى وقع بين المتنبي وبين ابن خالويه - النحوي - كلام في مجلس من مجالس سيف الدولة فوثب ابن خالويه على المتنبي ، فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج دمه يسيل على ثيابه فغضب وفارق سيف الدولة"^٢

وهذا ما جعل المتنبي يترك سيف الدولة ويتصل بكافور الإخشيدي سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وقد أصيب بالحمى في مصر وحدث خلاف بينه وبين كافور ، فهرب المتنبي من مصر وهجا كافور هجاء مقذعاً مشهوراً ، ورحل قاصداً بغداد سنة خمسين وثلاثمائة ، وهناك انبرى له كثرة من الحساد والمنافسين يتآمرون به ويسدون عليه الطرق .

"فتركها قاصداً الكوفة ثم أرجان حيث التقى بالوزير الأديب " ابن العميد " فأقام في ضيافته فترة وأخيراً وقع حادث عارض ختم به الغدر حياة المتنبي فرجع من عند عضد الدولة قاصداً بغداد ثم إلى الكوفة لثمانية حلون

(١) أعلام في العصر العباسي ، د حسين الحاج حسين المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط: ١ ، ١٩٨٥ .

(٢) وفیات الاعيان لابن خلكان ، ص: ١٢٣ .

حيث مات قتيلاً سنه أربع وخمسين وثلاثمائة^١ ، وسنطرق إلى الحديث عن مقتله في نهاية هذا الفصل

بوخه وعلومه :-

قرأ المتنبّي على يد أكابر علماء عصره مثل أبي إسحاق الزجاج ، وأبي السراج والأخفش الأصفر ، ابن دريد ، أبا علي الفارسي ، وكان له مناقشات مع كبار النحاة كابن خالويه ، وابن خالدية ، واطلع على عدة دواوين منها ديوان البحرّي ، وأبي تمام ، وبشار بن برد ، وأبي نواس.

"قمع اضطراب الحياة السياسية التي كانت سائدة في العصر العباسي الرابع ، نلاحظ ازدهاراً رائعاً للحياة الأدبية ، والعلمية والفلسفية ، وجميع العلوم بكافة أنواعها"^٢ فشارك أبو الطيب المتنبّي في ازدهار العلوم الأدبية بعد أن تزود بخير ما يحتاج إليه من ثقافة وافرته كانت تسود عصره وقد طلب المتنبّي العلم في صباه ، ورغب في تحصيله ، فحمّله والده إلى الشام ، وجال في أقطاره ، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها .

وقد كان المتنبّي " من المكثّرين من نقل اللغة والمطلعين علي غريبها وحواشيها ، ولا يسأل عن شيء إلاّ واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتي قيل : إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب (الإيضاح) و(التكملة) قال له يوماً : كم لنا من الجموع علي وزن فعلى ؟ فقال المتنبّي في الحال : حجلي وطرّبي ؛ قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال علي أن أجد لهذين الجمعيتين ثالثاً ؛ فلم أجد "^٣ .

^١ (شوقي والمتنبّي) (نظرات في الجندية والحرب) السيد فرج ص ٦٤

^٢ (أعلام من العصر العباسي ، دحيم الحاج حسن ص ٣١٢

^٣ (وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، مج : ١ ص ١٢٠

وطاف المتنبي في الحواضر والبادي ، وكان يلزم حوانيت الوراقين ليستفيد من كتبهم وذلك ما جعل علمه من دفاترهم لكثرة ملازمته لهم .

ومما يستطرف هنا في خضم هذا الحديث " أن أحد ا جاء يبيع أحد الوراقين كتابا للأصمعي ، وكان المتنبي حاضرا ، فراح ينظر فيه حتى ضجر صاحب المكان فقال له : يا هذا لأنني أريد بيعهم وقد قطعتني من ذلك فإن كنت تريد حفظه فهذا بعيد في مثل المدة ، فأجاب المتنبي : إن كنت حفظته فمالي عليك ، فقال الرجل أهب لك الكتاب ، وراح المتنبي يتلو من ذاكرته حتى أذهل الحاضرين ثم استلبه فجعله في كفه ومضى لشأنه^١ .

كما أن المتنبي - إلى جانب ما ذكر انفا- قد تأثر بتعاليم الشيعة ، وهو أول من تلقى علومه عند كتاب شيعيين، وقد اعتكف على دراسة الفلسفة " ثم بدأ بعد ذلك بدراسة كتب التصوف متأثرا بتعاليم الصوفيين ، وأحاط برموزهم، وله فلسفة إغريقية وعربية وصوفية ، من أمثال أرسطو وجالينوس والفارابي "^٢

آثاره ومنزلته:

يعتبر المتنبي أحد أئمة الشعر العربي ،ومن رافعي لواءه ،ولم يخدم الحظ شاعرا بعد موته كما خدم أبا الطيب المتنبي ،ذلك أنه قد اصطف أمامه - في حياته وبعد مماته - حشد من النقاد والحساد والأعداء والمنافسين ، فإن شعر المتنبي قد شغل الألسن ،وسهرت في أشعاره الأعين ، وعنى بشعره كثير من الأدباء فجمعوه وشرحوه "حتى ذكر أن شراح ديوانه يزيدون على

^١ (أعلام من العصر العباسي ، دحسين الحاج حسن ص ٣١١

^٢ (المصدر نفسه ص ٣١٢

الأربعين ، فمنهم المتقدمين أمثال ابن جني ، وأبو العلاء المعري ، والواحدوي والعكبري ، ومنهم المحدثين اليازجيان والبرقوقي^١ .

وكما اهتم بجمعه وشرحه ، هناك أيضا من اهتم بنقد شعره ، ومن النقاد من جار وأسرف كالصاحب بن عباد في كتابة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ، فإنه في هذا قد تتبع صاحب سقطات المتنبي دون حسناته ، وأيضا فعل مثله العميدي في كتابه الإبانة عن سرفات المتنبي ، ولكن ليس معنى هذا انه لم يكن هناك من تعصب للشاعر أو عليه وأعدل وأنصف في حكمه أمثال القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ، فقد ذكر فيه ما للشاعر وما عليه ، وكذلك صنع الثعالبي في " يتيمة الدهر " .

"وأشهر من نقد شعره من المتأخرين الشيخ إبراهيم اليازجي ، فإنه ذيل ديوانه بنقد بليغ بدأ به المتقدمين ، ثم قام بعده جماعة من الأدباء في الشام ومصر ، فدرسوا شعر أبي الطيب المتنبي درسا تحليليا حديثا ، وللمستشرقين مقدميهم ومحدثيهم عناية كبيرة بهذا الشاعر ، ونقل أشعاره إلى لغاتهم"^٢ .

مكانته وشهرته:-

لقد حظي المتنبي بشهرة واسعة لم يؤتها شاعر قبله ، فقد سار على مر السنين والأحقاب من عصر الحمدانيين حتى عصرنا الحاضر ، فقد ردد شعره في الحواضر والبادي وتخاصم فيه مجلس الأدب ، وتعدّد عليه حلقات الطلب وحجب شعراء زمانه فلم يذكر معه إلا أبا فراس الحمداني ، أليس هو القائل :-

(١) أعصر العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، ج: ٢ ، ص : ٣١٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ن ، ص .

"وَدَغَ كُلُّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي ، فَإِنِّي أَنَا الطَّائِرُ الْمُحَكِّيُّ وَالْآخِرُ الصَّدَى " ويقصد به أنه كان دائما الطائر المحكي والشعراء الآخرون في زمانه صدى له يرددون ويعيدون أقواله .

وكان من عداوة الأدباء له أن ضاعفت سيرورة شعره ، لأن اهتمامهم به كان بنقد أقواله وإظهار معاييه ، جعل الناس يلتفتون من كل حذب وصوب وقام له أنصار يدافعون عنه ويردون حجج خصومه ، فعنى الشراح والكتاب به فكتب له الخلود في أرفع ألواحه ذلك لأن " شعره كان فيه من قوة البلاغ ، ما يستبى الأسماع ، ويلج القلوب بغير استئذان فلا تقع حادثة في نظام الاجتماع إلا كان لها في شعره ما يُمثل به ، فكان كما يقول الشيخ إبراهيم اليازجي : (ينطق باللسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان) ، وقد وفق لإفراغ هذه المقلدات في قالب سهل واضح ، فاستساغتها النفوس ، وعلقت بالحوافظ ولما وجدت له بيتا عائرا إلا وقد جمع حلاوة اللفظ وشرف المعنى "¹.

فلهذه الميزات في شعر المتنبي ملك قلوب الناس ، فحفظوه واستشهدوا به حتى أن صاحب بن عباد قد حفظ شعره ومثل في محاضراته مع أنه كان أشد خصومه "وللمتنبي كما يقول الدكتور محمد زكي العشماوي (تشكيلاته الخاصة للغة وتكويناته الفريدة التي تنتمي إليه وحده ، فلا يستطيع كل خبير بالنسيج الشعري أن يدركها ويميزها عن غيرها"².

وقد امتازت لغة المتنبي بقوتها في الألفاظ والتراكيب والتشبيهات والاستعارات ، فكان في قصائده " يخلق نسقا جيدا من التراكيب اللغوية يعتمد أول ما يعتمد على نبذ المقاييس المنطقية الخارجية لتصبح انعكاسا للصورة

(١) أدباء العرب في العصر العباسي ، بطرس البستاني ، ج : ٢ ، ص : ٣١٢ .
(٢) قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط : ٢ ، ١٩٨٣ ، ص : ٢١٨ .

الداخلية التي تعبر عن حالة الشاعر الشعورية والروحية معا^١ "وكان لحياته المضطربة - كما مر أنفا ، فإن لتردده في البادية وتجوّاله وتشاؤمه من الزمان وأهله - له تأثيرا واضحا في قصائده ، فأحيانا تتجلى صافية فيها رونق ورواء ، فتطرب وأحيانا تتجهم كدرة معقدة ، فتتفر منها النفس وتضيّق.

"شعر المتنبي مسند تاريخي لزمانه ، هو أبرع من وصف جيشا ، وصور ملحمة ، و أكثر الشعراء المتقدمين بينا مقلدا ، وأنضجهم تفكيراً وحكمة، وأبصرهم بفلسفة الحياة ، وأخلدهم على مرور الأجيال^٢ .

بعض من أخلاقه وصفاته :-

يصور لنا شعر المتنبي أخص ما يمتاز به صاحبه من الصفات ففيه الكبرياء والأنفة والشموخ ، وهذا ما جعله يتعالى عن مسايير شعراء وقته في اللهو والمجون وشرب الخمر ، فقد كان يكره الخمر لأنها تضيع العقل ، فقد عرف بين أهل عصره بتجنّبه على كثرة غشيانه مجالس الأمراء والكبراء وكان أصدقاءه يعرضون عليه الشرب حتى انه قيل " وقد بلغ من إبانته الخمر أن حلف عليه صديق له بالطلاق ليشربن ، وقال له الأمير ابن طفج : بحقي عليك إلا شربت ، ولا أنكر أنه شرب مرات إجابة لأيمان أصدقائه ، أو إلحاح ممد وحية^٣ "

مع إنه كما تقول بعض الروايات أو كما قال علي بن حمزة " بلوت من أبي الطيب ثلاث خصال محمودة ، وذلك أنه ما كذب ، ولا زنى ، ولا

^١ (الإبانة عن سرقات المتنبي ، للعميدي (أبو سعد محمد بن احمد العميدي) تح : إبراهيم السوقي البساطي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٣٤ .

^٢ (أدباء العرب في العصر العباسية ، بطرس البستاني ، ج : ٢ ص : ٣١٢ .

^٣ (ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ، مصر ، ط : ٣ ، ص : ٢٠٢ .

لا ط ، وبلوت منه ثلاث خصال مذمومة وذلك أنه ما صام ، ولا صلى ، ولا قرأ القرآن .

ولكن مع كل ما ذكرنا من خصال وصفات إلا أن هذا الشاعر العظيم كان حزين الطبع كثير التفكير في الدنيا " فقد ساء ظنه بعصره فتشأ به ، واحتقر أهليه ، وزاده تشاؤما مغامراته الكثيرة وإخفاقه المتتابع ^(١) " .

وقال عنه ابن فورجه " كان المتبني رجلا داهية ، مر اللسان شجاعا ، حافظا للأدب ، عارفا بأخلاق الملوك ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال ^(٢) " ومما يذكر عن بخله تلك الحادثة الشهيرة إنه " قد سئل عن بخله فقال : إن للبخل سببا ، وذلك أني أذكر - وقد وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد ، فاتخذت خمسة دراهم في جانب منديل وخرجت أمشي في أسواق بغداد فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فرأيت خمس بطيخات باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها ، فتقدمت إليه ، وقلت : بكم هذه الخمس بطاخيخ ؟ ...

فقال - بغير اكتراث - أذهب فليس من هذا من أكلك ، فتماسكت معه ، وقلت أيها الرجل : دع ما يغيظ واقصد الثمن ، فقال ثمنها عشرة دراهم ، فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائرا ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الحان ذاهبا إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ ودعا له وقال : يا مولاي : هذا بطيخ باكورة بإجازتك أحمله إلى منزلك ، فقال الشيخ : ويحك بكم هذا ، فقال : بخمسة دراهم ، فقال : بل بدرهمين ، فباعه الخمسة بدرهمين ، وحملها إلى داره ودعا له ، وعاد إلى دكانه مسرورا بما فعل ، فقلت : يا هذا

^(١) أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، ج : ٢ ص : ٣٠٨

^(٢) الصبح المبني عن حثية المتبني ، يوسف البديعي ، ص : ٥٠

ما رأيت أعجب من جهلك : استمت عليّ في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت قد أعطيت بثمنه خمس دراهم فبعته بدرهمين محملا : فقال : اسكت ، هذا يملك مائه ألف دينار ... وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مائه ألف دينار ^١ .

وفي شعره ما يدل على مكان في نفسه من ذلك قوله :-

وَأَتَعَبُ خَلْقَ اللَّهِ مِنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَسْتَهِي النَّفْسُ وَجَدُّهُ
فَلَا يَنْحَلِّلُ فِي الْمَجْدِ مَالِكُ كُلِّهِ فَيَحِلُّ مَجْدٌ كَانَ بِالْمَالِ عَقْدُهُ
فلا مجد في الدنيا لمن قال ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فقد كان المتنبي "مغرورا إلى أقصى حدود الغرور وكان ذو طموح وزهو وكبرياء فهو ذا شخصية من الشخصيات الغربية وكان عظيما عبقريا"^٢.

مقتله :-

اختلفت الروايات في مقتل أبي الطيب المتنبي ، فمنهم من يقول قاتله فاتك بن جهل الأسدي ومن زاعم إن عضد الدولة لما وفد عليه المتنبي ، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة ، ثياب مفتخرة ، ثم دس عليه من قتله لأنه كان يفخر بعتاء سيف الدولة دون عضد الدولة ، وغضب عضد الدولة من ذلك وجهز عليه قوما من ضبة فقتله إثر رجوعه من شيراز متجها إلى بغداد إلا أن الرواية الأولى هي الأشهر وهي أن قاتله فاتك بن جهل ، وتحرير الخبر على النحو التالي :-

(^١) شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، ج : ١ ، ص : ٥ .
(^٢) المصدر نفسه ، ص : ٦ .

هو إن رجلا يقال له ضبة بن يزيد العتبي كان قد خرج من الكوفة مع خوارج الأعراب من كلاب ، فقتل والده في تلك الفتنة ، وسببت أمه ، فقال المتنبي قصيدة يهجو بها ضبة ويقول في مطلعها :-

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضَبَّةٌ وَأُمُّهُ الطَّرْطُبَّةُ

وهي قصيدة فاحشة الألفاظ ، كثيرة الغناء وهي التي قد سببت في قتله ، ذلك أنه كان لضبة خال يقال له فاتك بن جهل الأسدي ، فداخلته الحمية لما سمع ذكر أخته بالقبيح ، فأضمر الشر لأبي الطيب ، ولبت يتربص به في جماعة من قومه ، فلما عاد المتنبي من شيراز قاصدا بغداد ، فلما بلغ العمانية بالقرب من دير العقول ، خرج عليه فاتك في أصحابه ، فقاتل المتنبي حتى قتل هو وأبنة محسد ، وغلّامه مفلح ، وتقول بعض الروايات أن المتنبي حاول الفرار ناجيا بنفسه من قبضات فاتك ورجاله ، إلا أن غلاما من غلمانه صاح فيه أو تفر وأنت القاتل :-

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل كبطل مكره على الصمود حتى قتل ، وكان ذلك يوم الأربعاء في ٢٨ رمضان سنة أربعة وخمسين وثلاثمائة (٣٥٤) هـ .

ورثا أبا الطيب شعراء عدة ، منهم صديقه أبو الفتح عثمان بن جني النحوي ، ومظفر بن علي الطبرسي ، وعبد الله الكاتب النصيبي ، وثابت بن هارون الرقي النصراني ، وقد استجاش عضد الدولة على بني أسد لأنهم قتلوا ضيفه ، وحووا عطاءه ولكن عضد الدولة لم يصنع شيئا ، وذهب دم الشاعر وأصحابه هدرا ^١ " حيث قال فيه مظفر بن علي الطبرسي عند رثائه له :-

^١ (أدباء العرب في العصر العباسي ، بطرس البستاني ، ج : ٢ ، ص : ٣٠٩)

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانِي فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ
مَا رَأَى النَّاسَ ثَانِيِ الْمَتْنَبِيِّ أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِـبُكْرِ الزَّمَانِ
كَأَنَّ فِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي حَيٍّ شَيْءٌ وَفِي كِبَرِيَاءِ ذِي السُّلْطَانِ
هُوَ فِي شِعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

تطلعات المتنبي ورؤاه في قومية الحكم وعروبته :-

لقد كان المتنبي أكثر شعراء عصره حماسه للقومية العربية ، وأحياء لها ، بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك إذ وفر في عزمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل بتأليف العرب و تأليبهم على العجم في حرب عاصفة يكون هو قائدها .

"العصر الذي عاشه أبو الطيب شهد تجزئة البلاد والأقاليم العربية الإسلامية ، وتكريس تلك التجزئة إلى دويلات وممالك ، يقوم على أمورها أناس لم تربطهم بالعرب والعروبة وشيجة " ^١ .

ولم يكن لأبي الطيب في هذه الحالة موقف مستقر في خط أفقي يمثل أطوار حياته كلها ، وإنما تغير موقفه ، من الملوك حدة ولينا ، ولقد " شغلت فكرة القومية العربية أبو الطيب المتنبي عن العصبية الإقليمية فكل شبر من أرض العروبة وطن له ومستقر وقد شغلت هذه الفكرة نفسه وتركزت نحوها عواطفه " ^٢ .

فنجد أثناء رحيله إلى الشام وتنقله بين أهل البادية والحضر مدح كثير من ملوكها وملايكها ، فقد اتصل باثنين وثلاثين رجلا وقال فيهم حوالى

^١ التطلع القومي عند المتنبي ، جاسم محسن عبود ، منشورات وزارة الاعلام ، (الجمهورية العراقية) ، تشرين الأول ١٩٧٧ ، ص : ٨٥ .

* الصحيح منصرفا وإنما كتبت هكذا .

^٢ المتنبي بين ناقديه (في القديم والحديث) ، محمد عبد الرحمن شعيب ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، ص : ٣٢٠ .

أربع وأربعين قصيدة ، ولكنه تأخذ نوبة من لوم الذات ، إذ لم يجد ما يقرب أمانيه وتطلعاته القومية " حيث كشف عن تطلعات إلى غايات ومطالب جسام ، تصل في بعض الأحيان إلى أن يرى نفسه أحق بالشرف والرفعة والسيادة من أولئك الذين سادوا ، حتى أنه يلوم نفسه على ما ألت إليه من تشاغل بيع الشعر في سوق الكساد طلبا لدرهم قليلة منصرف * طلب المعاني ^١ " حيث نجده يقول :-

إلى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ والتَّوَانِي وَكَمْ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي
وَشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي بِيَّعَ الشَّعْرَ فِي سُوقِ الْكَسَادِ
وَمَا مَاضِي الشُّبَابِ بِمُسْتَرَدٍّ وَلَا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادٍ
ولكن في الوقت نفسه ظل مبشرا بآماله في تعريب الحكم وقوميته ، وتعريفه نقائص ملوك العصر .

وفي هذه الفترة من حياة المتنبي التقى - ببدر بن عمار الأسدي - وكان ذلك سنة ٣٢٨ و ٣٣٣ هـ ، وقد كان أبو الحسن " عربيا ماضيا كالسيف ، حلو الشمائل سمحا ، قريب المذهب من أبي الطيب في بفضاء العجم لما أنزلوه بالدولة من التفرق والتمزق ، وعرف أبو الطيب بعض أخباره ، فقصدته فرحا وكأنه وجد فيه ما أراد من الفكرة والسطوة والسلطان والقوة والرجولة الذي أبدعها أبو الطيب في صفتها بعد حين أعجب أبو الطيب بها وفتن " ^٢ حيث قال فيه :-

أحلما نرى أم زمانا جديدا أم الخلق في شخص حي أعيدا ؟
تجلى لنا فأضأنا به كأننا نجوم لقين سعودا !

(^١) قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العشماوي ، ص ٨٦.
(^٢) ديوان المتنبي ، محمود محمد شاكر ، مطب: المتنبي ، المؤسسة السعودية بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص: ٢٦٧

فتوسم المتنبي في بدر بن عمار الأسدي ما يحقق بعض تطلعاته ورواءه وخاب تطلعه بعد أن أجبره بدر على السكر ، فغادر مستأنفا طوافه في بلاد الشام ، وفي سنة ٣٣٧ هـ جاء سيف الدولة إلى أنطاكية " وقد استولى على أكثر الشام ووقف للروم يرد غاراتهم على أطراف بلاده ويوقع بهم إيقاعا شديدا ، وغلبت مقدراته الحربية كل من كان في عصره من القواد ورؤوس الفتن التي عملت في انتكاس الدولة العربية وهلاكها "¹.

فأصبح سيف الدولة هو الأمل الذي تتطلع إليه كل النفوس التي تستهدف الذات العربية ، فاتصل به المتنبي وقضى حوالي تسع سنوات في كنفه وهذه المدة هي أطول مدة قضاها في صحبه ملك - لأكثر من سبب - فكان سيف الدولة " مجاهدا يناضل على الإسلام ويحمي ثغور المسلمين من الروم "².

فقد كان يتسم بجدية في الحكم وفي تصريف الأمور ، فرأى المتنبي في الأمير الحمداني رمزا للدولة المفقودة فنظم فيه أكثر من سبعين قصيدة مابين طويلة وقصيرة .

وهكذا رأى المتنبي في سيف الدولة القيمة العليا التي تتعلق بها آمال العرب والمسلمين ، والتي سعى الشاعر إلى تحقيقها في زمن تلهت ملوكه لضعف أو لعجز فقد وصف المتنبي سيف الدولة بأنه أمير العرب الحقيقي وبأنه الملائ الذي تتعلق به أنظار المسلمين في عصر ضعف فيه الحكام أو عجزوا "³ حيث قال :-

وما لاقني بلد بعدكم ولا اعتضت من رب نعماي رب

¹ المصدر نفسه ، ص ، ١٨٧

² مع المتنبي ، طه حسين ، مط: دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ، ١٧٢

³ قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العشماوي ، ص ، ١٠٠

ومن ركب الثور بعد ألجوا د أنكر أظلافه والغيب

وما قست كل ملوك البلاد فرع ذكر بعض بمن في حلب

ولكن لم تكن علاقة المتنبي بسيف الدولة كما كانت عليه من قبل فقد اختلفت في آخر هذه الفترة التي قضاها مع سيف الدولة عن ذي قبل فقد كان قرب المتنبي لسيف الدولة قد أدت إلى " اشتعال الحقد في نفوس كثيرة من حوله وزادهم حقدا على حقد إنه كان في المتنبي استعلاء وكبرياء ، فأخذوا يكيدون له عند الأمير و يوغرون عليه صدره ، حتى تغيرت نفسيته إزاءه ويحس بذلك المتنبي الذي يثور لكرامته وحاول سيف الدولة مرضاته ولكن أثر المتنبي الرحيل احتفاظا بكرامته ^١ .

لقد ترك المتنبي سيف الدولة كارها ، فلم يكن قبل ببساطة شديدة أن يرحل من هذا الواقع الذي تجسدت مثالياته فيه ، فقد رحل سنه ست وأربعين وثلاثمائة قاصدا مصر بنفس يسيطر عليها اليأس والحزن بعد أن فقد كل ما كان يعنيه في حلب ، فقد حاول أن يستجدي عطف كافور ربما يعرفه عما فقدته وذلك في استجداء حزين لا تكاد ترى فيه نفحة الإشراق والابتهاج " لقد كان المتنبي يطمح من كافور في أن يوليه على بعض البلاد في الشام أو في صيدا ليحق ما تصبو إليه أماله السياسية " ^٢ ، فقد أقام أبو الطيب بمصر أربع سنين وستة أشهر مدح فيها كافور بتسع قصائد وقطعتين ، وهو في هذه الفترة في مصر أصبح ينادى " بتشخيص أدواء الحكم والسياسة وصار يركز على قومية الحكم وضرورتها في إطار من المعتقد الديني الإسلامي " ^٣ .

(١) فصول في الشعر ونقده، شوقي ضيف ، مط : دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م ، ص : ٩١

(٢) قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العشماوي ، ص ، ١٠٧

(٣) التطلع القومي عند المتنبي ، جاسم محسن عيود ، ص ، ٩٩

حيث نجده يقول :-

ساداتُ كل أناسٍ من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبء القزم

أغاية الدين أن تخفوا سواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

وقد كان المتنبي أثناء نزوله بمصر عند كافور نزل وضيعا مهانا وكان مصابا بالياس القاتل حتى أن أمله الضئيل الذي يتمناه لم يتحقق فنجدته رحل إلى الكوفة مسقط رأسه سنة ثلاثمائة وخمسين مصوبا سهام هجائه نحو كافور ، وفي أثناء وجوده في الكوفة أرسل له سيف الدولة بهدية فتأثر بها المتنبي ، وقصد إليه قصيدة في صراحة إلى الانقضاض على حكام بغداد المستعجلين أعداء العرب والعروبة وطلب منه " تعريب السلطة في بغداد مركزا في قصيدته على جداره سيف الدولة في قيادة العرب ، وعلى حديثه في سياسة البلاد " ^١ حيث قال :-

كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول

لو تحرفت على طريق الأعادي ربط السدر خيلهم والنخيل

ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه الحقير الدليل

ويزداد ألم أبي الطيب حين يرى صديقه لا يستجيب ، وانما ينهمك بترميم مملكته التي بدأت بالتداعي والانهياء ، ولعل قصيدة أبي الطيب الميمية:-

حتم نحن نساوى النجم في الظلم وما سراه على ساق ولا قدوم

هي خير ما يصور تطلعاته القومية وآراءه في الملوك ، وفي هذه

الفترة من حياته ، فهي من الشعر الوجداني المحض حيث يقول فيها :-

^١ التطلع القومي عند المتنبي ، جاسم محسن عبود ، ص ، ١٠٠

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفه الصنم
حتى رجعت ، وأقلامي قوائل لي المجد لل سيف ليس المجد لل قلم

وفي أواخر سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة يصل إليه كتاب من ابن
العميد وزير عضد الدولة بفارس طالبا منه أن يزوره ، ولبي المتنبي دعوته
، ويقدم عليه في "أرجان" من ديار فارس لأول سنة أربع وخمسين وثلثمائة
ويلقاه لقاء حافلا ، هنا أحس المتنبي بشعوره القومي العربي ، فقد ظهر في
ديار فارس " مع إنه قصد أمرائها قصدا ، وكرم تكريما لائقا ، ونعم بمفاتن
الطبيعة في شعب بوان غير إنه رغم كل شيء ما لبث أن حن إلى ديار
العروبة وإلى مسقط رأسه الكوفة ، وطغت مشاعره العربية فيه على كل
شعور آخر " ^١ حيث قال :-

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزله الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وهكذا سارع إلى مغادرة الري مدفوعا بمشاعر شتى منها ذلك
الشعور بأنه غريب بين قوم غرباء رغم أنهم مسلمون .

والحق أن العروبة والقومية لم تعرف شاعرا في القديم أخلص لها
كما أخلص المتنبي " ومن تئمة شغفه بالعروبة في شعره أن نراه في غزله
مفتونا بالأعرابيات مسحورا بهن يتغن بجمالهن ، معلنا أنهن يتفوقن بحسنهن

^١ المتنبي "أمة في رجل" الموسوعة الأدبية الميسرة خليل شرف الدين ، مط ، دار الهلال (بيروت - لبنان)
١٩٨٠ ص ٤٨

الفطري على الحضريات اللاتي يصبغن وجوههن ويمضغن كلامهن " ^١ وفي ذلك يقول:-

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدى طباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولعل في كل ما قدمناه " ما يصور إيمان المتنبي بالعروبة وشغفه بها منذ صباه حتى ليتحول فؤاده لها إلى ما يشبه معبدا ، ظل يقدم إليها فيه التراتيل في القرب وعلى البعد ، في بوادي الشام وحواضرها وعلى ضفاف النيل ومشارف أرجان وشيراز " ^٢

العوامل التي أسهمت في تكوين شعوره القومي :-

الحس الثوري عند المتنبي:-

لا يكاد الذين تحدثوا عن المتنبي مع كثرتهم ومع أحكامهم ومع اختلافهم في أحكامهم عليه يختلفون في أنه كان " هو الثورة الدائمة وقد تلبسته هذه الثورة وأخذت عليه مذاهبه في حياته وربما كان لروايات جدته التي كانت تقصها عليه أثر في هذه الثورية ، وربما تغذت هذه الثورية بطموحاته التي شب عليها وهو يأمل نفسه شخصا آخر متفردا أو مغائرا " ^٣ ومهما يكن من الأسباب فإننا نجد أن هذه الثورة قد احتاجت كيان المتنبي منذ صباه وقد صحبته خلال رحلة حياته فقد شكلت لديه تطلع و رؤى قومية غرست في نفسه التمرد والمخالفة دون حدود وقد ثبت في نفسه الشعور بالعروبة .

^١ (فصول في الشعر ونقده ، شوقي ضيف ، ١٩٧١ م ، ص : ٩٤)

^٢ (المصدر نفسه ، ن ، ص

^٣ (ديوان المتنبي ، محمود محمد شاكر ، ص : ٥٩ ، ٥٨)

فمنذ فترة الصبا ، نرى أنفسنا أمام شاعر تحتاجه ثورة عارمة لا ترضى بشيء ، ولا تقنع، ثورة ضد كل شيء، ضد نفسه وضد الأوضاع القائمة ، وضد القيم التي لا ترضاها النفس الثائرة " وتثور نفس التبنّي على الواقع الذي يراه ، فيرى في نفسه المخلص والمنقذ الذي سيصاحبه السيف في غداوته و روحاته منقذا ومخلصا ، فلم يعد الصبر يقنعه أو يقدم له حلا لهذه الآمال العريضة التي رأى نفسه مهنيا ومسؤولا عنها" ^١ حيث قال :—

لقد تَصَيَّرْتُ حَتَّى لَا تَ مُصْطَبِرٍ فَالآنَ أَقْحَمُ حَتَّى لَا تَ مُقْتَحِمٍ
لأَتْرَكَنَّ وَجْهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمٍ

ويُتَبَنُّ مما سبق إننا أمام شخصية غامضة ثائرة ، وإن هذه الثورية هي عامل هام صاحبه منذ صباه المبكر و استمرت معه حتى كهولته و بدت في نظرته إلى الواقع وفي علاقاته بالآخرين بل علاقاته مع نفسه حيث لم يرض عنها كما توضح أشعاره ودائما والأهم من هذه الروح الثائرة كان لها تأثيرها الواضح في شعوره بقوميته وعرويته .

الغربة :

نشأ المتنبي في غربة مادية قوامها فقدان الأم في مرحلة مبكرة ثم فقدان الأب بعد ذلك كما مر بنا اننا فقد " تبدت هذه الغربة المادية في تلك المرحلة في ذلك الغموض الذي أحاط بنشأته الأولى و الذي تحدث عنه الباحثون ، كما تحدثوا عن إصرار المتنبي على كتمان أمر نسبه وأهله" ^٢ وساعد على هذه الغربة كذلك اختلاف المتنبي الصبي إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فقد كان المتنبي مختلفا عليهم تماما فقد كان ينتسب إلى هذه

(١) مع المتنبي ، طه حسين ص ٣٩

(٢) الصبح المبي عن حيثية المتنبي ، يسف البديعي ، ج: ١ ص : ٢٠

المدرسة نسبا شرقا فكان يفوق زملائه علميا و يفوقونه اجتماعيا "فقد بدأت مواهبه الشعرية تتفتح في هذا الكتاب ، ولم يكن قد تجاوز العاشرة بعد"^١.

إذن كان على المتنبي في خضم الأحداث أن يصارع ظروفه التي وجد فيها بمفرده دون حسب أو نسب يحمي به أ مال يسنده ، لأنه كان فقيرا معدما ولهذا يقول الأستاذ محمود محمد شاكر عنه إنه كان يمشي في صباه "في نواحي الكوفة بالآلامه وأحقاده وفقره"^٢ فنجده يقول :

لُمَ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَتَ عَلَى جِدَّتِي بِرَقَّةِ الْحَالِ وَأَعِزَّتْنِي وَلَا تَلُمُ
أَرَى أَنَا وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ وَذِكْرَ جُودِ وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلَمِ

ونجد أن هذه الغربة تفاعلت مع ثورة المتنبي التي لا تهدأ فخلقت منه في النهاية رافضا ، يحيا في غربة تكاد فيها مشاعر القلق والتوت في جولاته التي لا تتوقف . " لقد أختار المتنبي غربته بمحض اختياره ، فقد رأى في نفسه تفوقا غير عادي يميزه عن سائر المحيطين به ، ومن أجل هذا وجد المتنبي نفسه في الحياة غريبا عن المكان والزمان^٣ حيث قال :—

بم التعلل؟ لا أهل ، ولا وطن ولا نديم، ولا كاس ، ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكرث ما دام يصحب فيه روحك البدن

إذن نصل إلى أن المتنبي رافضا لحياة الآخرين متمرد على أوضاعهم الاجتماعية والأخلاقية ، هذا ما جعل في نفسه الشعور بالغربة المادية ، ثم قادته غربة نفسية كان لها اتصالا كبيرا بتمرده على الأوضاع

^(١) مع المتنبي ، طه حسين صر : ٣٦

^(٢) ديوان المتنبي ، محمود محمد شاكر ، ص: ٧٣

^(٣) قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العشماوي ، ص ، ٦٧

القائمة والسلطة". هكذا عاش المتنبي حياته مغتربا عن واقعه ، ومغتربا عن ذاته^١ فكانت ذاته تطمح إلى مثال يجسد العروبة والقومية والوطنية على نحو تنكشف معه وتتبلور قيمة الذات العربية التي لم يحرص المتنبي على شيء قدر حرصه عليها وتطبيقها .

الذات العربية :

إن الجو الذي عاش فيه المتنبي والظروف التي أحاطت به كان العربي فيها يفتقد إلى قيم العروبة والوطنية هذا ما جعل ضياع الذات العربية بين أفرادها فلم تعد تمثل لقيم العروبة والقومية التي مجدها ونادوا بها في أشعارهم فقد " انتضعت أخلاق الأمة العربية بسبب اختلاط العرب بشعوب لا تقيم وزنا للخلق أو الدين ، وفسدت المقاييس واضطربت الأمور اضطرابا شديدا وأصبح المال هو الميزان الذي يوزن به الرجال بغض النظر عن الحكمة أو العقل أو الرجولة أو كرم العنصر"^٢

فتجد القرن الرابع عصرا شديدا التعقيد ، وذلك لما يعج به من أصداد فقد كانت الأمة العربية منقسمة ويتحكم فيها الأعراب من كل ضرب ولون ففي هذه الظروف وهذه الأوضاع التي نشأ فيها المتنبي فقد افتقد أبو الطيب إلى قيم العروبة وقومية الحكم بحث عنها فلم يجدها وكان إن رحل "إلى بادية الجزيرة العربية المقضية إلى نجد وفيها قبائل من كلب وحوالي ٣١٧ هـ — ، فالتقى بهم واخذ ينتقل بينهم لسمع ما بقي من العربية المبراة على ألسنة هؤلاء القوم الذين قلت بينهم الأعاجم"^٣

(١) المصدر نفسه ، ص: ٧٠

(٢) الصبح المبني عن حيشة المتنبي ، يوسف البديعي ، ج: ١ ص : ٩٦

(٣) ديوان المتنبي ، محمود محمد شاكر ، ص: ٧٤

فلقد كان هم المتنبي من هذه التجولات هم البحث عن العروبة والقومية التي ضاعت في بغداد بين الحكام والأعاجم الذين تولوا شؤون الدولة وتصريف سياستها وهكذا اندفع المتنبي إلى تمثل الذات العربية في كل أشعاره ، حتى في تغزله بالبدويات كان عربيا خاصا ، ينشد الذات العربية ، فقد ظهرت " نزعة البدوية في غزله للأعربيات و مقابلتهن بالحضريرات وله في ذلك أبيات مشهورة نذكر بعضها هنا ^١ :—

إن الذين أقمن و ارتحلوا	أيامهم بديارهم دول
الحسن يرحل حيثما رحلوا	معه، وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشأ تديرهما	بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها	وصدودها ومن الذي تصل

لقد بحث المتنبي عن الذات العربية في الإنسان العربي الذي يكون اعتزازه بعروبه و قوميته فوق أي اعتبار ، فلم يجد أمامه إلا سيف الدولة الذي اعتبره حاميا للدين و رافعا لواء العروبة عاليا ، ففي كثير من قائد المتنبي نراها رحلة شاقة في بحثه عن الذات العربية وتمثله من قيم يطمح إليها .

ومن هنا نجد أن عروبة المتنبي و مشاعره القومية ترتبط ارتباطا وثيقا بنشأته الصارمة و مزاجه الحاد وكرهه الشديد لأعاجم الذين نازعوا المسلمين حقهم في السيادة والخلافة " ومن هذا المنطلق نفهم شعوره بالتوحد والغربة في أمة عربية تداركها الله ... لا بكونها عربية ، أو لأنه لا تتناسب إليها ، بل لأنها أمة هانت عليها كرامتها ، وأسلمت أمرها لمن كانوا خدما ... أما هو فلا يزال يحمل الحس العربي الصافي والنخوة العربية الأبية ^٢

(^١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، أنيس المقنسي ، ط ١٢٠ مط دار العلم للملايين (بيروت لبنان) ١٩٧٩ ص ٣٤٦

(^٢) المتنبي "أمة في رجل" الموسوعة الأدبية الميسرة خليل شرف الدين ، ص: ٤٩

وتبين مما سبق إنه تتجلى نزعة المتنبي إلى العصبية القومية ، وهي جماع فلسفته السياسية التي ماض بها شعره و التي شقي بها حيا ومات من أن أجلها قتيلا.

رفضه للواقع:

يزداد المتنبي شعورا بالأسى وينمو معه هذا الشعور عندما يرى الظلم والطغيان يلقي بأثقاله على الشعب وهو جائم لا يرد هذا الظلم والعدوان ، ويرجع المتنبي هذا لما "أصاب العرب من محن خلقية قبل أن تكون سياسية ، هذه المحن جعلت الناس أضعف من أن تبادر بالثورة لقهر العدوان فهذه المحن هي التي جعلت من المتنبي أن يقوم بمعركة حامية الوطيس على هذا الواقع الذي يعيشه شعبه وذلك ليست معركة بالسيوف والرماح بل هي بالقرطاس والقلم بحيث يرسم فيها المثل العربية رسما يجسدها لهم ويرفعها أمامهم شعارات يتمثلونها ، وفي نفس الوقت يصور فيهم النقائص التي جعلتهم يخنعون لظالمهم محاولا بذلك أن يحفزهم حتى يحطموا الظلم الذي يحيق بهم ، وحتى يذكر فيهم الشعور بكرامتهم و الإحساس بأن الحياة التي يحيونها مقينة ولا تطاق.

وينظر المتنبي من حوله ، فيجد الرعية المظلومة نائمة أو كالنائمة قد خدرها كثير من الرذائل التي تجثم على حياة الناس حين تلح عليهم الخطوب ويهتف فيهم أن يردوا عنهم هذا الوباء الكريه مغیظا محنقا أشد ما يكون الغیظ والحنق .

"ولاشك في أن أبا الطيب كان يحاور جلساؤه فيطرح أفكاره ومبادئه ، ولا يلقي تجاوبا بل لا يلقي إلا الاعراض والنفور ، وربما السخرية ، كأن ناس مجتمعه وأمرأهم ن قد تلبد حسهم وارتضوا بالواقع، بل اعتبروه خير واقع

يمكن أن يبلغوه"^١ وبهذا نجد المتنبي قد خلص إلى نتيجة مرة ، تتضح فيما تدل عليه قصيدته النونية من مرارة والتي نرى فيها مسحة من الحزن اليأس وذلك " لجهالة الواقع وعزوف من فيه عن طلب المعالي واستكانتهم إلى حياة الضعة والمذلة "^٢

حيث يقول :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية
شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق
تخطي إذا جئت في استفهامها بمن
لا أفتري بلدا إلا على غرر
ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملكهم أحدا
إلا أحق بضرب الرأس من وثن
إني لأعذرهم مما أعنفهم
حتى أعنف نفسي فيهم وأني

(^١) المتنبي والثورة ، أنعام الجندي ، مط : دار الفكر اللبناني (بيروت لبنان)، ص : ٦٦
(^٢) قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العشماوي ، ص ، ٥٩

فهذه صورة عجيبة لمجتمع عصر المتنبي ، ولكنها شديدة الواقع "أفراده من القاعدة إلى قمة الهرم ،سواسية ، فقدوا كل ميزة انسانية لذلك كان مجتمعه متفسخ ،سطحي ، جهول ، متقاعس ، حقود فلا يطبق الحر فيه عيشا ، والحر في وعي الشاعر ، وهو الثائر المتمرد الذي يرفض كل نقص ، وينطوي على كل القيم المثلى" فكأنما يذكر أفراد مجتمعه بما هم فيه من نقص، وفقر إلى أبسط الصفات الانسانية ، إنه نقيضهم لذلك لا يلقى منهم إل الرغبة في هلاكه والحقد عليه .

فيتبين مما سبق هو أن المتنبي لم يكن من الحاقدين عل مجتمعه و أفراده على وجه الحقد ، ولم يكن يفتقر الى الروح القومية الوطنية ، ولم يكن من المتعيبين على غير العرب وإنما كان دائب التركيز على تعرية الشخوص السلبية في مجتمعه ، فيشهر بهم ويفضح دنياهم، ويغض من سلوكيتهم و يمقت واقعهم فقد "كان المجتمع الذي عاش فيه أبو الطيب مجتمعا ،متفسخا في قيمه ومثله وأهدافه ، وصوليا في سلوكيته وحياته ،خانعا لشراذم من الدخلاء ، أن تسوس أمرهم وتتحكم بمصيره"^{٦٦}.

وأدت سلبية هذا المجتمع والواقع الذي عاشه المتنبي إلى أن يغض أفراده أعينهم عما يقع بهم ، وبالأخرين من ظلم و عسف وصولا إلى مارب شخصية تزيد فيما يكتزونه من مال ، ولا قيمة لذلك المال وفي ذلك الرفاه، عند المتنبي .

هذا هو أبو الطيب المتنبي في موقفه من واقعه فقد كان في صراع لاهت مع أفراده حيث كان في دائم تطارده رغباته وأماله ورغبته الجارفة في الهروب من الواقع العفن من حوله بأناسه الذين يشبههم تارة بالبهايم

^(٦٦) المتنبي والثورة ، أنعام الجندي ، ص : ٦٦
^(٦٧) التطلع القومي عند المتنبي ،جاسم محسن عيود ، ص ، ٧٥

وتارة بالأوثان أو الأصنام * فالمتنبي لا يستطيع أن يتعامل مع هؤلاء الأفراد في مجتمعه حتى بالحديث إذ كيف يخاطب ما لا يعقل ؟! .

نماذج من شعره القومي :

بعض قصائد المتنبي التي تثبت صحة كل ما كتب عنه في هذا الموضوع وهي على الترتيب :

القصيدة البائية: التي وضح فيها عطفه على القبائل العربية واجتهاده في عطف الأمير سيف الدولة عليهم وذكره بعربيتهم وقرابتهم ، حيث يقول:—

فقاتل عن حريمهم وفروا	ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهم سلفى معد	وأنهم العشائر والفيحاب
تكفك عنهم صم العوالي	وقد شرفت بظعنهم الشعاب
فعدن كما أخذن مكرمات	عليهن القلائد والملاّب
يثبّك بالذي أوليت شكرا	وأين من الذي تولى ، الثواب
وليس مصيرهن عليك شيئا	ولا في صونهن لديك عاب
ولا في فقدهن بني كلاب ،	إذا أبصرن غرتك ، إغتراب
وكيف يتم بأسك في أناس	تصيبهم ، فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم	فإن الرفق بالجاني عتاب
وأنهم عبيدك حيث كانوا	فإذا تدعوا لحادثة أجابوا
وعين المخطئين هم وليسوا	بأول معشر خطئوا فتابوا

ولكن ربما حفى الصواب	وما جعلت أياك بك البوادي
وكم بعد مولده اقتراب	وكم ذنب مولده دلال
فمنه جلود قيس والثياب	وأن بك سيف دولة غير قيس
وفي أيامه كثروا وطابوا	وتحت ربابة نبثوا وأثوا
وذلل لهم من العرب الصعاب	وتحت لواءه ضربوا الأعادي
ثناه عن سموسهم صباب	ولو غير الأمير غزا كلابا
يلاقي عنده الذئب الغراب	ولاقي دون نأيهم طعانا
ويكيفها من الماء الشراب	وخيل تغتدي ريح الموامي
فما نفع الوقوف ولا الذهاب	ولكن ربهم أسى إليهم
ومن أبقي وأبقته الحراب	بنو قتلى أيبك بأرض نجد
وفي أعناق أكثرهم سخاب	عفا عنهم و اعتقهم صغارا
فكل فعال كلهم عجاب	وكلهم أتى مأتى أبيه

أيضا قصيدته الرائية :- نجدها تحمل سمات مميزة وتشف عن أصالة أبي الطيب وموقفه القومي "، حيث يقول :-

وأخذ للحواضر والبوادي	بضبط لم تعود نزار
تشممه شميم الوحش إنسا	وتنكره فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك من زمان	فتدري من المقادة والصغار
فأقرحت المقاوذ ذفريها	وصعرا خدما هذا العذار
جياذ تعجز الأرسان عنها	وفرسان تضيق بها الديار

وكانت بالتوقف عن رداها	نفوسا ، في رداها تستشار
وكننت السيف قائمة إليهم	وفي الأعداء حدك والغرار
وحاوا الصصححان بلا سروج	وقد سقط العمامة والخمار
وأرهمت العذارى مردفات	وأوطنت الأصببية الصغار
أرادوا أن يدبروا الرأي فيها	فصبحهم برأي لا يدار
إذا فاتوا الرماح تناولتهم	بأرماع من العطش القفار
يرون الموت قد اما وخلفا	فيحتارون ، والموت اضطرار
إذا سلك السماوة غير هاد	فقتلاهم لعينيه منار
ولو لم تبق لم نعش البقايا	وفي الماضي لمن بقى اعتبار
إذا لم يرع سيدهم عليهم	فمن يرعى عليهم أو يغار ؟
تفرقهم وإياه السجايا	ويجمعهم وإياه النجار
بنو كعب وما أثرت فيهم	يد لم يدمها إلا السوار
بها من قطعة ألم ونقص	وفيها عن جلالته افتخار
لهم حق بشركك في نزار	وأدنى الشرك في أصل جوار
لعل بينهم لبنيك جند	فأول قرح الحيل المهار
وأنت أبر من لو عق أفنى	وأعفى من عقوبته البوار
وأقدر من يهيج انتصار	وأحلم من يحلمه افتدار
وما في سطوة الأرباب عيب	ولا في ذلة العبدان عار

ولعل قصيدة المتنبي الميمية :

حتام نحن نساوي النجم في الظلم وما سراة على ساق ولا قدم

هي خير ما يصور تطلعاته القومية ونزوعه القومي ، حيث يقول :

ما زلت أضحك كلما نظرت إلى من اختضبت أخفا فيها بدم

أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم

حتى رجعت و أقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإن غلقت فاني قلة الفهم

أسمعتني ودوائي ما أشرت به فإنما نحن للأسياف كالخدم

من اقتدى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

توهم القوم أن العجز قربنا وفي التقرب ما يدعوا إلى التهم

ولم تزل قلة الأنصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

فلا زيارة إلا أن تزورهم أيد بشأن مع المصقولة الخدم

من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منتقم منه و منتقم

صنا قوائمها عنهم فما وقعت مواقع اللؤم في الأيدي ولا الكرم

أيضا القصيدة التي تقول :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهدا بها القـدم

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

لا أدب عندهم و لا حسب ولا عهود عندهم و لا ذمم

ليس كل أرض وطنتها أمم	ترعى بعبد كأنها غنم
يستحسن الخزّ حين يلمسه	وكان يبيري بظفره القمّ
وإني وإن لمت حاسدي ، فما	أنكر أني عقوبة لهم
وكيف لم يحسد امرؤ علم	له على كل هامة قدم
يهابه أبسا الرجال به	وتتقى حد سيفه البهم
كفاني الذم إنني رجل	أكرم مال ملكته الكرم
يجنى الغنى للنّام ، لو عقلوا	ما ليس يجني عليهم العدم
هم لأموالهم ولسن لهم	والعار يبقى والجرح يلتئم

القصيدّة النونية :— التي قالها وهو في كنف عضد الدولة في ارجان
حيث تمثّل شعوره بالغربة وارتباطه القومي لتلك الأقاليم التي افتقدتها في
شيراز حيث يقول :—

مغاني الشعب طيبا في المغاني	بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها	غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها	سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا و الخيل حتّى	خشيت و إن كرم من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيه	على أعرافها مثل الجمّان
فسرت وقد حجب الشمس عني	وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي	دنائرا تفر من البنّان
لها ثمر تشير إليك منها	بأشربة وقفن بلا أواني

وأمواه يصل بها حصاهما
ولو كانت دمشق ثنى عناني
يلنجوجي ما رفعت لضيف
يحل به على قلب شجاع
منازل لم يزل منها خيال
إذا غنى الحمام الورق فيها
ومن بالشعب أحج من حمام
وقد يتقارب الوصفان جدا
يقول بشعب بوآن حصاني:
أبوكم آدم سن المعاصي
وختاما نقتبس من شاعرنا قوله :
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين الصغير العظام

لقد اتضح لنا جليا إنه قد سقط علم رفيع من أعلام الشعر العباسي الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس) كما قال ابن رشيق منذ ولادته في محلة كندة بالكوفة وحتى مقتله يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ٣٥٤هـ — وفيما تلا ذلك من الأزمان وحتى الآن.

(١) نقلت هذه القصائد من ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمى بالتيبان في شرح الديوان ، مط دار المعرفة (بيروت - لبنان) ن ضبطه وصححه و وضع فهرسه مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبد الحفظ شلبي (بأجزائه الأربعة)

يعد من أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تنتج مثلها لغيره من شعراء العربية. فيوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحى للشعراء والأدباء، ولكن قد خان هذا الشاعر الحظ وقد أظننت عليه الأيام بكرسي ولاية في حياته، وقد حاول مرات ومرات، ففشل في كرسي الامارة، وفاز بعد موته بكرسي الخلود في دنيا الشعر والأدب .

ولن أن نقول أن المتنبي لم يمت و أن شعره لا يزال على السنة الزمان ترده في كل مكان، فقد شمع أبو الطيب، بأدبه، بقيمه، بعروبته، بقوميته، وله أن يشمع اليوم بضريحه، وبأمجاده فهو ذو حق على العروبة، وعلى العربيين وهو شيخهم في حب العربية وتمجيدها وفي تقديس العربية وبنائها انتماءً وقوميةً فهو بهذا جدير أن يقرأه الشباب الطامح في بناء مجد الأمة وأن يحفظوا من درره وحكمته السارية . ترعرع في البادية أثناء صباه، وظلّ سحابة حياته بدويّ النزعة، خالص العروبة، يقدس القومية العربية، ويؤثر الجنس العربي، وقد أدرك في ذاته شمائل النفس العربية، كالسخاء والأنفة، والجلد، والبسالة، والطموح إلى السيادة والمجد، وأحبها في نفسه، فصوّرها في شعره.

المراجع :

١. أثر بعد عين ن محمد أحمد وريث ، ط: ١ ، مط : المنشأة العامة للنشر والتوزيع الاعلان (طرابلس ليبيا) . ١٩٨٣م
٢. أعلام في العصر العباسي ، د. حسين الحاج حسن ، مط: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (بيروت ، الحمراء — لبنان). ١٩٨٥ م ، ط: ١
٣. أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، ج: ٢ ، مط: دار مارون عبود (بيروت — لبنان) ١٩٧٩ م ، طبعة جديدة منقحة ، مشروحة ، فهرسة .
٤. أمراء الشعر العربي العباسي ، أنيس المقدسي ، ط: ١٠ ، مط: دار العلم للملايين (بيروت — لبنان) ، ١٩٧٩ م .
٥. الصبح المنبي عن حيثة المتنبي ، يوسف البديعي ، تح: مصطفى السقا ومحمد شتا ، مط: دار المعارف (بمصر — القاهرة) ١٩٦٣ م .
٦. الابانة عن سرقات المتنبي ، العميدي ، (أبو سعد محمد بن أحمد العميدي) ، تح : ابراهيم الدسوقي البساطي ، مط: دار المعارف (بمصر — القاهرة) ١٩٦٢ م
٧. التطلع القومي عند المتنبي ، جاسم محسن عبود ، منشورات وزارة الاعلام (العراق — بغداد) ١٩٧٧ م
٨. المتنبي بين ناقديه (في القديم والحديث) ، د. محمد عبد الرحمن شعيب ، مط: دار المعارف (مصر — القاهرة) ، ١٩٦٤ م .
٩. المتنبي والثورة ، أنعام الجندي ، مط : دار الفكر اللبناني (بيروت — لبنان) .

١٠. المتنبي أمة في رجل ، الموسوعة الأدبية الميسرة ، خليل شرف الدين ، مط : دار ومكتبة الهلال (بيروت - لبنان) ١٩٨٠ م .
١١. ديوان ابي الطيب المتنبي ، شرح أبي البقاء اعكبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، مط دار المعرفة (بيروت - لبنان) ن ضبطه وصححه و وضع فهارسه مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبد الحفظ شلبي (بأجزائه الأربعة)
١٢. ديوان المتنبي ، محمود محمد شاكر ، مط : المدني ، المؤسسة السعودية (مصر - القاهرة) ١٩٨٧ م .
١٣. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، د . عبد الوهاب عزام ، ط: ٣ ، مط: دار المعارف (مصر - القاهرة) .
١٤. شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، ج: ١ ، مط: دار الكتاب العربي (بيروت - لبنان) ، ١٩٨٠ م .
١٥. شوقي والمتنبي (نظرات في الجندية والحرب) ، السيد فرج ، ط: ١ ، مط: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ م .
١٦. فصول في الشعر ونقده ، د. شوقي ضيف ، مط: دار المعارف (مصر - القاهرة) ١٩٧١ م .
١٧. قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، أيمن محمد زكي العثماوي ، ط: ١ ، مط: دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت - لبنان) ١٩٨١ م .
١٨. مع المتنبي ، طه حسين ، مط: دار المعارف (مصر - القاهرة)
١٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ن ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ، تح : د . احسان عباس ، مج: ١ ، مط: دار الثقافة (بيروت - لبنان) .